الأستاذ رشيد بن مالك

المحاضرة الثالثة في مادة السيميولوجيا والأنثربولوجيا

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الأنثربولوجيا

إن المتتبع للمسار العلمي لرولان بارث، سيلحظ من دون مشقة أن رؤيته الجديدة ستسحب على الدراسة البنيوية للحكاية المنضوية تحت عدد ثيمي موسوم بـ **بحوث سيميولوجية** يضم مجموعة من الدراسات تصدت للحكاية والأسطورة والسينما. تحدث بارث عن التحليل البنيوي للحكاية وأقر بأن علامات الراوي محايثة للحكاية وفي متناول التحليل السيميولوجي[68]. بينما أثار أ.ج.گريماس A.J.Greimas سؤالين، بالاستناد إلى كلود ليفي شتراوس الذي حدد وصف الأسطورة بثلاثة عناصر أساسية: البناء والشفرة والرسالة، يقترن الأول بالبحث عن الإجراءات الكفيلة بتأويل المكونات الثلاثة للأسطورة في إطار **النظرية الدلالية**، ويرتبط السؤال الثاني بالمكانة التي يمكن أن نسندها لكل واحد منها في تأويل الحكاية الأسطورية[69]. أما كلود بريمون Claude Bremond، فإنه أدرج منطق الممكنات السردية في إطار الدراسة السيميولوجية للحكاية[70]. وفي اعتقاد كريستيان ميتز Christian Metz الذي تبنى الرؤية البارثية، يمكن أن تقدم اللسانيات **العامة والسيميولوجيا العامة**، وحدهما فقط، للغة السينيمائية "النماذج" المنهجية المناسبة[71].

ومهما يكن من أمر، فإن هؤلاء الباحثين، سواء أشاروا صراحة أو ضمنيا إلى الخلفية السيميولوجية في دراساتهم، فإنهم خرجوا عن المألوف، ودخلوا عهدا جديدا بدأت تتشكل من خلاله الملامح العامة للمشهد العلمي في تلك الحقبة لتنذر بتحول جذري في المقاربة السيميولوجية للدلالة التي أعطاها رولان بارث دفعا قويا بدراسته المتصدرة **العدد السيميولوجي**. ونظرا لأهميتها التاريخية في تعميق الوعي بالمنظور السيميولوجي في مقاربة الحكاية، سنعرض للتوجهات البنيوية العامة لدراسة بارث التي ستتخذ اللسانيات نموذجا ستسير على هديه لمقاربة الحكاية.

إن أولى المشكلات التي واجهت بارث وهو يتأمل في الحلول الممكنة الكفيلة بمقاربة الحكاية تتمثل في صياغة الحجج التي سيستدل بها للاستعانة باللسانيات، واتخاذها نموذجا للتحليل. فلا غرابة إذن في لجوئه إلى التحري عن القواسم المشتركة بين الجملة والخطاب. وعلى الرغم من أن اللسانيات تشكل موضوعا مستقلا يتوقف عند الجملة ولا يتعداها، فإن بارث يؤكد على ضرورة دراسة الخطاب من منطلقاتها لوجود علاقة تماثلية بينه وبين الجملة، من جهة، ولأن نفس التنظيم الشكلي يضبط كل

الأنساق السيميائية مهما اختلفت ماهياتها وأبعادها، من جهة أخرى: هكذا سيصبح الخطاب جملة كبيرة على غرار الجملة التي ستكون خطابا صغيرا. ووفق هذا التصور، وبالاعتماد على مستويات التحليل اللساني عند إميل بنفنيستEmile Benveniste[72]، يبدي بارث اقتناعه بأن اللسانيات منذ بدايتها ستدعم التحليل البنيوي بتصور حاسم يتمثل في المستويات التي تخضع لوصفها الجملة: الصوتي، والفونولوجي والنحوي والسياقي. تحكم هذه المستويات علاقة تراتبية لأن أي واحد منها لا يمكنه بمفرده أن ينتج المعنى. ولئن احتكم كل واحد منها إلى وحداته وترابطاته الخاصة به مما يستتبع وصفا مستقلا، فإن كل وحدة تنتمي إلى مستوى معين لا تأخذ معنى إلا إذا تمكنت من الاندماج في مستوى أعلى: فالفونيم، بالرغم من قابليته للوصف، لا معنى له في حد ذاته، ولا يساهم في المعنى إلا إذا أدمج في الكلمة،وقس على هذا الكلمة التي عليها أن تندمج في الجملة. ويرى بارث أن نظرية المستويات التي صممها بنفنيست تزودنا بنوعين من العلاقات: الأولى توزيعية إذا وقعت في نفس المستوى، والثانية إدماجية إذا تم إدراكها بالانتقال من مستوى إلى آخر. وينتج عن ذلك أن العلاقات التوزيعية لا تكفي للإحاطة بالمعنى. ولقيادة التحليل البنيوي، يميز بارث بين الهيئات الوصفية وإدراجها ضمن منظور تراتبي(إدماجي). من هذه الزاوية، ومهما يكن عدد المستويات المقترحة، وكيفما يكن تعريفها، فلا يمكن التردد في اعتبار الحكاية تراتبية هيئات. ففهم الحكاية في رأي بارث ليس فقط متابعة مجرى القصة، بل يعني أيضا التعرف فيها على "الطوابق" وإسقاط التسلسلات الأفقية للخيط السردي على محور عمودي ضمنيا. أن تقرأ (أو تسمع) قصة لا يعني الانتقال من كلمة إلى أخرى فحسب، بل من مستوى إلى آخر. بهذه الطريقة، يدرج بارث نظرية المستويات للوقوف ليس فقط على العلاقة التي تقيمها المفردات مع بعضها البعض، بل على علاقاتها بالمستويات الأخرى. ولا سبيل للوصول إلى ذلك إلا باتخاذ المعنى مرتكزا أساسيا في تحديد مستويات وصف القصة التي لا تتجاوز الثلاثة في رأي بارث: **مستوى الوظائف**(بالمعنى الذي تحمله هذه الكلمة عند بروب وبريمون) **ومستوى "الأفعال"**(بالمعنى الذي تتضمنه هذه الكلمة عند گريماس لما يتحدث عن الشخصيات كعوامل) و**مستوى السرد**(الذي يعد إجمالا مستوى الخطاب عند تودوروف).